بابـــر

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ١ —

لقد أعقب موت تيمورلنك عصراً من الاضطراب السياسى فى إيران وما وراء النهر. وقد استطاع ابنه شاه رخ أن يثبت سلطانه على معظم ملك أبيه ، ويكبح الثائرين من أقاربه . فلما توفى سنة ٨٥٠ ، عم النزاع ، واشتد الاضطراب ، حتى نشأت الدولة الصفوية ، فكان انتصار الشاه اسماعيل فى موقعة شرور سنة ٩٠٧ بعد قرن كامل من وفاة تيمور فاتحة حروب مظفرة مدّت سلطان اسماعيل إلى أفغانستان ونهر جيحون ، فشمل هـذه البلاد سلطان واحد .

ولقد كان لبنى تيمور على ما كان بينهم من حروب ، وعلى قصر زمان كثير منهم ، أثر محمود فى الفنون والآداب ، وقد نبغ منهم جماعة من ذوى الآثار الواضحة فى ذلك العصر مثل شاه رخ وألوغ بك ، والسلطان أبى سعيد ، والسلطان حسين ميرزا .

— ٢ —

ونتكلم الآن فى سيرة عبقرى من سلالة تيمور تقلبت به غير الدهر بين هزيمة وانتصار ، ونجاح وخيبة ، فكشفت عن خلال من الهمة والطموح والشجاعة والصبر ، انتهت به إلى إقامة دولة من أعظم الدول التي عرفها تاريخ الإسلام ، وبقيت سيرته فى صفحات التاريخ عبرة لذوى الهمم ، ومثلاً لأصحاب النفوس الكبيرة .

ذلكم محمد ظهير الدين بابر الذى يصل نسبه بتيمور أربعة آباء: بابر بن عمر بن أبى سعيد بن محمد بن ميرانشاه بن تيمور .

ويمتاز هذا الرجل العظيم بأنه ترك للتاريخ سيرته مفصلة بينة مصورة صورة صادقة طبيعية بعيدة من التكلف والرياء فى كتابه « بابر نامه » الذى سنذكره من بعد ، ولست أعرف بين العظماء رجلاً كتب سيرته بيـده فى بيان مـهيب ممتع طبيعى صريح كما فعل بابر .

— ٣ —

كان أبوه عمر شيخ أميراً على فرغانة تولاها سنة ٨٧٠ من قبل أبيه السلطان أبى سعيد ؛ واستمر أميراً عليها بعد وفاة أبيه إلى أن توفى سـنة ٨٩٩ . وهنا تستمع حديث بابر عن أبيه فى « بابر نامه » :

« كان حنفى المذهب ، صحيح العقيدة ، مواظباً على الصلوات فى أوقاتها . قد قضى جميع ما فاته من الصلوات ، وكان يديم تلاوة القرآن ، وكان من مريدى الشيخ عبدالله — وهو المعروف بخواجه احرار — يحرص على صحبته والتبرك به ، ويدعوه الشيخ ابنه

« وكان يحب الأدب ، قرأ منظومات : نظامى والمثنوى والشاهنامه ، وكتباً فى التاريخ ؛ وكان قادراً على نظم الشعر ، ولـكنه لم يحفل به

« وكان عادلاً يتبين حبه للعدل من هذه الواقعة : بغتت عاصفة شديدة من الثلج قافلة آتية من بلاد الخطا على سفوح الجبال شرقى أندجان . فلم ينج من ألف رجل إلا رجلان فلما بلغه الخبر بعث رجالاً أحرزوا أموال القافلة وأتوا بها فحفظها لأهلها مع احتياجه إلى المال . فلما عرف ورثتهم بعد سنة أو سنتين دعاهم وسلم إليهم أموالهم

« وكان سخياً حسن الخلق فصيح الكلام حلوه، شجاعاً باسلاً يحسن الضرب بالسيف، وكان وسطاً فى الرمى بالسهام شديد اللكم لا يثبت للكته مصارع » إلى أن يقول: « وكان يكثر من الخمر

نحن فى الشرق نسمع كثيراً عن فلسفة النازيين فى الاقتصاد، وفلسفة النازيين فى التربية، وفلسفة النازيين فى السياسة، وفلسفة النازيين فى القوانين وغير القوانين

ومن الواجب أن نسمع كثيراً عن جميع أولئك على شريطة أن نسمع كل شىء وأن نحيط بكل جانب وأن نسمع الجمجمة ونحاول أن نرى الطحن الذى وراءها

وعندئذ نعرف الحقيقة ونعلم أنها جمجمة ولا طحن فى كل شىء وفى كل مضمار

ونفهم أن « النازية » أكذوبة كبيرة حشوها الغش والخداع والأعراض الزائلة والتهويش الذى ينخدع به الأغرار ولا يجوز على أحد من المنصفين

عباس محمود العقاد

ولكنه اقتصد من بعد فكانت مجالس أنسه يوماً أو يومين فى الأسبوع الخ ... »

ويقول : « كان عمر شيخ مرزا قصير القامة مستدير اللحية بديننا ممتلىء الوجه يلبس ثوباً ضيقاً جداً فإذا شد أربطته ضغط على بطنه وكثيراً ما تقطعت الأربطة بعد أن يشدها ، وكان لا يتكلف فى ملبسه ومأكله ، يلف عمامته لفة واحدة ، وكانت العمائم إذ ذاك أربع لفات وكان يلفها دون علىّ ويترك لها عذبة . ويلبس فى أكثر أوقات الصيف خارج الديوان قلنسوة مغولية »

ويقول عن أمه إنها من بنات يونس خان وهو من ذرية جغتاى بن جنكيز . وبعد أن يتكلم عن نسب يونس خان وسيرته يذكر أولاده واحداً واحداً إلى أن يقول: «وكانت بنت يونس خان الثانية أمى قتلق نكار ، وقد رافقتنى أكثر أيام كفاحى ومحنى وتوفيت رحمها الله عام ٩١١ بعد استيلائى على كابل بخمسة أشهر أو ستة »

ويذكر أولاد أبيه فيقول : « ترك ثلاثة بنين وخمس بنات ، وكنت أنا ظهير الدين محمد بابر أكبر أبنائه وأمى تدعى قتلق نكار »

— ٤ —

مات عمر شيخ سنة ٨٩٩ هـ فورث ابنه بابر ملك فرغانة ، وهى ولاية على نهر سيحون وكانت سنه إذ ذاك اثنتى عشرة سنة

ومن الممتع أن نقرأ فى بابرنامه الفصل الأول الذى يفتتحه بابر بقوله :

« فى شهر رمضان من سنة ٨٩٩ وفى الثانية عشرة من عمرى صرت ملكاً على فرغانة وهى من الإقليم الخامس فى طرف المعمورة تحدها كشغر من الشرق وسمرقند من الغرب وجبال تبرخشان من الجنوب ، وكان فى شمالها مدن عظيمة . (ثم يفيض فى ذكر مدن فرغانة وأنهارها وحيواناتها ونباتها)

لم يكن ملك فرغانه ميسراً لبابر ، فقد مرت عليه أحداث عظيمة لم يستقرفيها ملكه إلى أن أخرج منه طريداً بعد عشر سنين من موت أبيه

طمع أعمامه فى ملكه أول الأمر وحاولوا أن يغتصبوه عرش فرغانة ، فلم يبلغوا ما أملوا

يقول بابر : « لما توفى عمر شيخ مرزا فجأة كنت فى جهار باغ فى أندجان

« ويوم الثلاثاء ١٥ رمضان جاء الخبر مدينة أندجان فركبت جوادى على عجل وسرت إلى القلعة فيمن كانوا فى خدمتى فلما بلغت باب مرزا أمسك (شيريم قفاى) بعنان الفرس ، وسار إلى المصلى (نماز كاه) وكان قد خشى أن يأتى السلطان أحمد مرزا فى جيوشه الكثيرة فيسلمنى الأمراء إليه مع المملكة ، وأراد أن يذهب بى إلى أزكند على سفح جبل آلاتاغ ، فإذا سلّم الأمراء الولاية للسلطان أحمد نجوت أنا وذهبت إلى آلاجه خان أو السلطان محمود خان من إخوانى »

كان هم بابر منذ ورث ملك فرغانة أن يستولى على سمرقند ليكون خليفة جده تيمور فى دار ملكه . فما زال حتى فتح سمرقند سنة ٩٠٣ هـ (١٤٩٧م) ثم ثار بعض الكبراء فى فرغانة فأخرجوها من سلطانه ، فخرج ليردها إلى حكمه فخذلته جيوشه ففقد سمرقند أيضاً ولكنه استطاع أن يسترد فرغانة وسمرقند بعد جهاد ومحن

ولم يستقر له الأمر طويلاً فقد أخرجه الأزبك من سمرقند ، وفرغانة معاً سنة ٩٠٦ هـ فبقى بابر سنين ثلاثاً يطوف فى البلاد ويحاول استرجاع ملكه؛ وهو يحدث أنه هزم مرة ففر فى ثمانية من أنصاره وتعقبهم العدو وأعيت الخيل ، فتخلف بعض رفاقه ، وبقى معه اثنان، فلما أعيا فرسه نزل له أحد الرفيقين عن فرسه ، فسار حتى أعيا الفرس الثانى ، فقدم إليه الرفيق الأخير حصانه ، وسار وحده ووراءه اثنان من الأعداء حتى جن الظلام ، فترجل وأوى إلى صخرة ليعتصم بها ويرى من يتعقبه بالنبال. وذلك مثل مما مر بهذا الرجل الشجاع الصبور

ولا بد لمثل بابر أن يكون ملكاً ، فلما عجز عن استرجاع فرغانة وسمرقند عزم على أن يختط بالسيف مملكة أخرى، فما كان له بد من أن يكون ملكاً طوعاً أو كرهاً ، فها هو ذا يجتاز جبال هندكوش الثلجية ويفتح كابل ثم يمد سلطانه فى أرجاء أفغانستان

بابر اليوم ملك مسلط على أقاليم من أفغانستان ولكن همته تحاول ملكاً أعظم ، وعزمه لا يقر بالعجز عن استرجاع عرش آبائه فيما وراء النهر . وها هوذا السلطان اسماعيل الصفوى يطوى الأرض من أذربيجان إلى أفغانستان فيحالف بابر اسماعيل الصفوى على عدوه من الأزبك

سار بابر إلى سمرقند سنة ٩١٤ فأخذها ولكنه أخرج منها بعد حين وهزم هزيمة شنيعة أبلنته كابل بعد أن أشفى على الهلاك

يئس بابر من سمرقند بعد هذه الخطوب أو كاد ييأس منها فنالها اليوم بعيـد . فماذا يفعل ؟ أيقنع بما ملك من أفغانستان ويرتقب الحوادث لعلها تتيح له فرصة ، أم يقهر الحوادث على الخضوع لمشيئته ويوسع سلطانه فى أرض الله الواسعة ؟

كانت جيوش بابر تشرق إلى حدود الهنـد أحياناً فما الذى يمنعه أن يحاول ملـكا عظيما فى هذه الأرض العظيمة ؟

غزا الملك الطموح أطراف الهند سنة ٩٢٥ هـ (١٥١٩ م) واستولى على بعض الأقاليم ثم رجع إلى كابل فانتقضت عليه الأرض التى فتحها ، ولكن هذه الغارة مدت عينيه إلى هذه الأرض الغنية الواسعة

— ٥ —

كان السلطان فى دهلى إذ ذاك إبراهيم اللودى الأفغانى الأصل استولت عليها أسرته سنة ٨٥٥ . وكان إبراهيم ولوعاً بأبهة الملك يريد أن يخضع رؤساء الأفغان لآداب وسنن لم يألفوها. كان يلزمهم أن يقفوا فى حضرته صامتين مطرقين، فسخطوا عليه واجتمع بعضهم على أخيه جلال فحاول أن يقاسم إبراهيم الملك ، وثار آخرون فقابل إبراهيم ثورتهم بالشدة والقسوة ، وقتل بعض زعمائهم ، وتعاقبت الثورات فى أرجاء المملكة حتى وفد عمه علاء الدين إلى كابل يلتمس عوناً من بابر على ابن أخيه ؛ وتلك هى الفرصة التى لا يضيعها بابر ، والأمنية التى كان يتمناها والمغامرة التى يميل إليها وينشط لها ، وكان محبًّا للمخاطرة والمغامرة

أسرع إلى انتهاز الفرصة حتى بلغ لاهور فإذا جيوش دهلى قد انتصرت على (التاترين دولت خان) ، فقلب بابر انتصارهم هزيمة وتعقبهم فى شوارع لاهور ، ثم أسرع ففتح ديبل بور وترك علاء الدين اللودى فيها ورجع إلى كابل

وفى سنة ٩٣١ (١٥٢٥ م) رجع بجيوشه إلى الهنـد وقد أعدلها عدته فلقيه (التاترين دولت خان) محارباً، وكان قد أوهمه أنه سيؤيده ، ولكن جنده تفرقوا حينما اقترب بابر . وتقدمت جيوش كابل للقاء جيوش دهلى . وكان السلطان إبراهيم خرج للحرب فى مائة ألف مقاتل ومائة فيل . وجعل بابر مدينة باتيبات إلى يمينه وجعل على يساره خنادق وحواجز من الأشجار ، ووضع أمام جيشه عربات المدافع مشدوداً بعضها إلى بعض وجعل بينها فرجاً تتسع الواحدة منها لمرور مائة فارس ورتب جيوشه خلفها ، ووقف إلى أقصى اليسار وأقصى اليمين سرايا من المغول للمفاجأة حين الحاجة

وفى ليلة الثامن من رجب سنة ٩٣٢ (٢١ ابريل سنة ١٥٢٦) فاجأ بابر جيش السلطان ابراهيم فلم يفلح غير أنه أخرج عدوه من معسكره ، وعند الفجر تحركت جيوش ابراهيم فهجموا دون تلبث، وحسب بابر أنهم يقصدون جناحه الأيمن فأمده، ولما جاءت الجيوش الهاجمة إلى الخنادق والحواجز وصف العربات المشدودة ترددوا وضغطتهم الجماعات إلى ورائهم، فاضطرب أمرهم، فانتهز بابر الفرصة وأرسل سرايا المغول من الفجوات التى بين العربات فداروا حول العدو وشرعوا يرمونه من الخلف ، ووقف بابر كالصقر يرقب المعركة، فلما تقدمت جماعة من ميسرته على غير حذر فزلزلهم العدو سارع إلى إمدادهم، ولما اشتد ضغط العدو على ميمنته أسرع إلى إمدادهم أيضاً ، وكان الأستاذ على رئيس المدفعية فى مقدمة الجيش ناشطاً موفقاً فى عمله

وانجلت المعركة عن السلطان ابراهيم قتيلاً بين خمسة عشر ألفاً من جنده .

يقول بابر : « كانت الشمس قد ارتفعت حينما بدأ الهجوم واستمرت المعركة إلى الظهر فكانت هزيمة العدو ، وتم انتصارنا ويسر الله العظيم لى هذه المصاعب ومحق هـذا الجيش الكبير فى نصف يوم »

وغنم فى هذه الموقعة وبعدها من الذهب والجوهر والسلاح والخيل ما لا يحصى ففرقه بابر غير ضنين به ولم يحرص على ادخاره

وبادر بابر فأرسل سريتين فاحتلتا دهلى واكراز ، وفى يوم الجمعة ١٤ رجب سنة ٩٣٢ خطب لبابر فى جامع دهلى فبدأ فى الهند تاريخ الدولة الإسلامية العظيمة التى سيطرت على الهند كلها حيناً وبقى سلطانها فى تلك البلاد إلى سنة (١٢٧٥ هـ — ١٨٥٨ م)

(البقية فى العدد القادم)

عبد الوهاب عزام